لوك أبووت: معلمو فلسطين متعطشون للمعرفة وأطفالها يملكون من المهارات أكثر مما لدى أفضل المتعلمين

حاوره: نادر داغر*

تعد تجربة لوك أبووت في فلسطين نوعية، ليس فقط من خلال التدريبات التي يقدمها في منهج «عباءة الخبير» في الدراما كأسلوب تربوي، وإنما في ذلك الجانب الشخصي المعرفي الذي أتاح له فرصة التعرف على المجتمع والناس عن قرب، فكتب عن تجربته ما اعتبره البعض من أفضل ما يمكن أن يكتبه خبير، من حيث التفاصيل والوصف الدقيق. قال أبووت إنه للوهلة الأولى شعر بأن الأطفال الفلسطينيين لا يمتلكون شيئاً، بسبب ضعف الإمكانيات المتاحة لهم، ولكنه كما قال وجد أن لديهم كل شيء، بعد أن خاض تجربة لسنوات من خلال نشاطات مؤسسة عيد المحسن القطان في مجال التربية. لقد خرج أبووت بتجربة تربوية وإنسانية وكتب عنها، ما أوصل فكرة من نوع مختلف أثارت اهتمام القارئ في المملكة المتحدة.

في هذا الحوار الذي أجريته معه خلال كانون الثاني من العام 2016، يحدثنا أبووت عن تجربة عمله في فلسطين من خلال مركز القطان للبحث والتطوير التربوي، وفيما يلي نص الحوار.

خُلقتُ للتّحدّي

من هو لوك أبووت؟ كيف لك أن تُعرّف عن نفسك؟

المسألة مرهونة، في الواقع، بالجمهور الذي أتعامل معه، ولكن بإمكاني القول إنّني شخص شغوف بأساليب التربية والتعليم التي تتخطّى تلك المتّبعة، بالعادة، في المدارس؛ أي تلك التي تتجاوز ممارسات «التّمدرس» إلى ممارسات التعلّم والتربية بالمعنى العميق.

أمّا من أنا، فأعتقد أنني إنسان خُلقتُ للتّحدّي، لذا أتحدّى الوضع الرّاهن وكل أسباب الظلم ومسبّبيه. وأظن أن مردّ ذلك أن والديّ كانا كذلك أيضاً. فأبي كان شبه لاجئ، إذ اضطُرَّ إلى الهرب من قبرص بعد أن كان أحد دعاة الانشقاق هناك في شبابه. أمّا عائلة أمي، فقد قدمت من إيرلندا، وكانت هي من أوّل جيل من الإيرلنديين الذين استقرّوا في إنجلترا قُبيل اندلاع الحرب مباشرة. لذا، أعتقد أن هذه الجذور لعبت دوراً مهماً في نشأة الرغبة لدي في دعم المضطهدين ومناصرتهم. ولا أعتبر نفسي مُجدّداً ثورياً، ولكن اختصاصي هو التربية والمدارس، وأعتقد أن مربط الفرس يكمن فيهما؛ أي أنّ علينا برأيي تقويم الوضع في المدارس حيثما كنّا، لأن الوضع القائم في كل أنحاء العالم غير سليم. فالأطفال يتلقون معارف باتت بالية بالنسبة إليهم، ويخضعون لامتحانات واختبارات لا تعود عليهم بالفائدة. ونحن بهذا نُبقي على وضع لم يعد ناجحاً منذ زمن مديد.

علينا أن نستحدث أنماطاً جديداً للتعليم في العالم، لأن الجامعات لا تمكنك من الحصول على الوظيفة. فإذا حصلت على تعليم ومعلمين أفضل، ستزداد فرصك في الحصول على وظيفة، إلّا أنّنا رأينا في العقد الماضي أن هذه المقولة غير صحيحة، بل العكس تماماً هو الصحيح. فالعديد من أفضل الطلبة المتخرجين من الجامعات، يحصلون على وظائف دنيا على حدّ تعبيرهم، لأن ليس لديهم خيار آخر. فهم غير قادرين على فعل شيء خلّاق ومتميّز بسبب غياب منظومة تتيح لهم ذلك.

أنت تعدّ رائداً في تطبيق منهج "عباءة الخبير" في التعليم في غرفة الصّف، وتعمل مع مركز القطّان للبحث والتطوير التربويّ منذ سنوات عدّة، فكيف بدأت هذه العلاقة؟

حدث الأمر حقيقية بالصدفة، إذ كنت أعرف البروفيسور ديفيد ديفيس، الذي كان يعمل في مجال الدراما في المدارس أيضاً.

وكلانا عمل طويلاً في مجال الدراما في التعليم في إنجلترا، وهو خبير موهوب ومتميّز. وأثناء عمله، بدأ يسمع عن العمل الذي كنت أقوم به في مجال منهج عباءة الخبير، وتأثيره الكبير في إنجلترا، فسألني إن كان بإمكاني إدخال تلك الممارسات التربوية إلى فلسطين، وتعريف المعلّمين بها بعد أن كانوا قد استخدموا في عملهم العنصر الدرامي، وهو المهم في منهج العباءة، لأنه منهج دراميّ بالطّبع. وسألني إن كنت قادراً على منحهم فرصة أكبر للعمل ضمن منهج العباءة كمنظومة متكاملة وبالتفصيل. فديفيد يعرف منهج العباءة كأسلوب يستخدمه أساتذة المسرح والدراما، ولكنه اعترف أنّه لا يعلم كيف يُوظّفه تماماً ضمن المنظومة التعليمية. فهو لا يعلم كيف يقوم بذلك، بينما سبق أن قُمتُ به أنا. فكانت تلك هي الفرصة التي منحني إيّاها ديفيد، إذ استملت بعض الحصص التي كان سيعطيها، لاسيما تلك التي كانت في عمّان، حينما درّست طلاب السنة الثالثة، كما توليت منح بعض الدروس التي كان سيعطيها هنا في رام الله باستخدام منهج عباء الخبير على وجه التحديد. فكان الأمر بمثابة جسر مدّه ديفيد لي، فهو الذي منحني المصداقية بدعمه لي، وقوله إنني ماهر في عملي. وبما أن ديفيد أكثر من ماهر طبعاً، قال الآخرون "حسناً، سنعطيه فرصة".

"القطان" .. مؤسسة غاية في التميز

ما رأيك بتجربتك في مؤسسة القطّان وفلسطين عموماً؟

حقيقة أظن أن المؤسسة غاية في التميّز. وفي تجربتي العملية مع كوادرها، رأيت أن فيهم عدداً من أفضل المهنيين الذين قابلتهم في حياتي. فهُم يسعون إلى استغلال أي سياق تعليمي يتسنّى لهم ليتحدّوا الأطفال والمجتمع، وليحاولوا إحداث التغيير اللازم لخلق القيادات التي تحتاجها كل دولة من الدول، بما فيها بلدي. ولكن بالطبع، ثمة فجوة كبيرة جداً أراها هنا، وأعتذر عن هذا إذ أرجو ألّا أكون تجاوزت الحد بقولي ذلك. فأنا أتساءل أين هي القيادات هنا؟ وبالطبع أعلم أن المسألة صعبة جداً عندما تكون البلد قابعة تحت الاحتلال، لذا يتمحور كل عملنا بالدرجة الأولى حول زرع بذور القيادة تلك.

أطفال فلسطين .. خيول عربية أصيلة

ما رأيك في تجربة عملك مع الفلسطينيين على المستوى الإنساني؛ سواء أكانوا مدرّسين أم أطفالاً؟

رائعة! عند العمل مع الأطفال واليافعين، قد يطلق الإنسان أحكاماً عليهم، كأن يقول إنّه يصعب التعامل معهم، أو إنهم كثيرو التطلّب،

لوك أبووت خلال عمله مع الأطفال في الخان الأحمر.

أو ما إلى ذلك، ولكنني كنت كذلك بالضبط عندما كنت في مثل عمرهم. وكان جميع من التقيت بهم من الأطفال والشباب الذين تراوحت أعمارهم بين 3 سنوات تقريباً و16 أو 17 سنة، في منتهى الروعة، كما أنهم شديدو الفصاحة، ويتمتّعون بقناعات راسخة. وأنا معجب بهم، فهم كالخيول العربية الأصيلة، فيهم شيء من الجموح والنشاط والشغف. ومن الرائع أنهم لم يفقدوا هذه المزايا.

أما الراشدون، فقد تأثّرت كثيراً بكل من التقيت بهم وتحدّثت إليهم ... بأولئك الذين لم يحطمهم القمع والاضطهاد، والذين يعملون بمنطق أن الوضع الراهن مجرّد مرحلة عابرة ستزول، وبأولئك الذين يواصلون العمل تحت الضغوط التي يسببها الاحتلال. فما عساي أن أقول أكثر؟ فأنا أشعر بالإجلال لأولئك الفلسطينيين الذين لنا أن نتعلّم منهم الكثير من حيث قدرتهم على التعايش مع ظروف حياتهم مهما كانت، لاسيما في المناطق الفقيرة من بلادنا.

لحظة فارقة

تعاملت مع الناس في الخان الأحمر والمدرسة الصيفية: الدراما في سياق تعلمي، وطلبة مدرسة الفرندز ومعلميها، ومارست العديد من الأنشطة، فهل كانت هناك لحظة فارقة في علاقتك بالفلسطينيين أو العرب عامةً أو في فهمك لهم؟

نعم، بالطبع، كان ثمة لحظات فارقة. فهناك مثلاً موقف معروف ضحكنا أنا وزميلي كفاح الفني الباحث في مركز القطان عليه طويلاً، وهو حينما طرحنا تساؤلات بشأن أكل لحم الخنزير، وقضينا وقتاً شيّقاً في حث الحاضرين على التفكير بالأمر، وإلى أي إطار ينتمي، وحينما عملنا أيضاً مع المعلمين في أريحا وقضينا أوقاتاً مشحونة صعبة هناك. وأذكر أنني تعلّمت الكثير آنذاك عن الإطار الديني العام، والفكر المتزمت، والسياق الاجتماعي الذي يعيش فيه الناس. وكانت تلك لحظة فارقة بالنسبة إليّ، إذ تعلّمت الكثير أثناء الأيام الثلاثة التي علّمت فيها مع أولئك الأشخاص. وأدركت أكثر من أي وقت مضى الكثير من الأمور بوجودي في ذلك المكان المشحون إلى حد ما، وأقصد بذلك أنني فهمت مدى أهمية العامل الديني للعديد من الناس الذين أعمل معهم، غير أنه بطريقة أو بأخرى لا يعيق سير العمل. ولكن إن غاب الدين تماماً عن السياق العام، قد يعني هذا أننا سنكون في مكان آخر مختلف. فبلدي مثلاً دولة علمانية الآن، لها ثقافتها الدينية التي قامت عليها بالأصل طبعاً، ولكنها علمانية في الواقع. فالثقافة السائدة لدينا مبنية على التعدّدية في كل المجالات، وسبق أن قطعنا شوطاً طويلاً جداً في فهم أنماط تعايش الأديان المختلفة ضمن إطار اجتماعي واحد. بينما أشعر أن هذا البلد هنا إسلامي لا محالة، وأن الناس مسلمون، وأن شرع الإسلام هو الحاكم، لكنه ليس بالضرورة شرع الله، وإنما شرع قائم بين الناس عليهم أن يتّبعوه وألّا يخالفوه. ولست أدري إن كان هذا نابعاً من التقاليد، أم أنه إيمان أعمى، أم قناعة روحيّة، ولكن هذا سؤال أطرحه دوماً عن كل المعتقدات الدينية.

تجربة عميقة ومفيدة

كتبتَ عن تجربتك في فلسطين، لاسيما يوم ذهابك إلى الخان الأحمر. وكان ما كتبته شيّقاً جداً لنا حين قرأناه، فهل لقي رواجاً في المملكة المتحدة؟

كان له صدى رائع، لاسيما في مجال الدراما، كما حصلت على ردود إيجابية كثيرة من زملائي في المجال، وبالذات من زميل لم ألتقِ به منذ أكثر من 30 عاماً. فبعد أن قرأ المقال، اتّصل بي مباشرة، وقال إنه من أفضل المقالات التي قرأها والتي تستعرض خبرة شخصية مباشرة عاشها خبير، لأنّه برأيه يرسم الوضع الفلسطيني

لوك أبووت خلال عمله مع الأطفال في الخان الأحمر.

له بتفاصيله. واستعملت المقال في مناسبات عدّة في محاضرات ألقيتها عن الدراما والتربية، وحدّثت العديد من المعلمين عن تجاربي في فلسطين، لاسيما مع الأطفال الذين قد يبدو في الظاهر أنهم لا يملكون شيئاً، غير أنهم يملكون كل شيء في الواقع لأنهم متعلمون ومثقفون جداً. فقد يبدو أنهم غير متعلمين، ولكنّهم ذوو علم كبير، كما أن لديهم قدرات عالية جداً، ومهارات اجتماعية كبيرة، ويتعاملون مع بعضهم بإنصاف، ولديهم حس ابتكار وإبداع عالٍ جداً، ومهارات لغوية قويّة، وهي كلها أمور نرصدها في أفضل المتعلمين. وهنا أيضاً رأيت الفرق الشاسع بين العدد الكبير من الناس الذين يملكون كل شيء –أي مجتمع الاستهلاك– وأولئك الذين يعيشون لتوفير لقمة عيشهم يوماً بيوم في الجبال، مع بضعة رؤوس من الماعز، وبعض الخضراوات. وأظن أن علينا التمعّن في هذه الصورة ومساءلتها في جميع أنحاء العالم، لأنها تعني إمّا أن الناس مستعبدون، وإما أن لهم الخيار في العيش على النحو الذي يريدون. وهذا تساؤل مهم يُطرح على مستوى العالم أجمع. وعلى أي حال، فقد كانت تجربتي هنا عميقة ومفيدة جداً.

على امتداد سنوات عملك، تعاملت مع معلمين وطلبة على حد سواء، فما انطباعك عن الفريقين؟ وما هي الصورة التي بنيتها عن كليهما؟

هذه أسئلة عميقة جداً ... كان الأمر يكمن في رؤية إلى أي مدى أدرك الناس أن عليهم تطوير أنفسهم إن أرادوا أن يصبحوا معلمين كما أريدهم أن يكونوا، ومدى قدرتهم على ترسيخ صورة المعلمين المُثلى تلك في عقولهم، أي أن يقولوا في أنفسهم إن "ذلك هو الهدف الذي أسعى إليه، وعليّ أن أتعايش مع نفسي ومع طبيعتي الحالية كمدرّس، وتلك هي الرحلة التي أودّ خوضها". ودُهشت حين رأيت أنهم استطاعوا الثبات على ذلك فترات كافية ليحدثوا تغييرات حقيقية في أنفسهم على الرغم من الضغوط الثقافية والتربوية والدينية التي تثبطهم عن إحداث ذلك التغيير. فالأمر كان صعباً عليهم وسيظل يمثّل تحدّياً لهم، لهذا بالتحديد تفاجأت من وجود رغبة في الاستمرار في هذا المشوار حتّى بعد مرور 6 سنوات على بدايته. وهذا برأيي كان الأثر الذي أحدثه عمل المؤسسة، فهي أبقت على هذه الرغبة، وحافظت على ثبات الأساتذة في مسعاهم لأن يصبحوا معلمين بالصورة التي يطمحون إليها. وقد ينطبق هذا على مجموعة محدودة حالياً، ولكن الأمر ذو تأثير كبير جداً، علماً أنّ عدد المعلمين ازداد كثيراً عن بدايته في أول البرنامج. وها قد أسسنا الآن برنامج التبادل بين المملكة المتحدة وفلسطين،

لوك أبووت خلال مساق عباءة الخبير مع طلاب المدرسة الصيفية- جرش، الأردن.

وهو آخذ بالنمو. وأعلم أن قدرة استيعاب البرنامج أصبحت تمثّل إشكالاً، وأن علينا الحفاظ على القدرة عينها، ثمّ زيادتها شيئاً فشيئاً، وهو أمر جيّد لا محالة.

معلمون متعطشون للمعرفة

بالنظر إلى مُجمل تجربتك وعملك وما تعلمّته هنا، أتظنّ أنْ ثمّة ما ستحمله معك عند عودتك إلى بلدك؟

في كل مرّة آتي إلى هنا أتعلم شيئاً وأحمله معي عند رحيلي. ففي كل مرة يتعين عليّ وضع تسلسل محدّد للعمل مع المعلمين، وعادة ما أجري تجارب هنا لأرى كيف تسير الأمور مع أُناس يُسبب لهم العمل نوعاً من القلق، وهو ما يتيح لي أخذ تلك التجارب معي عند عودتي إلى المملكة المتحدة وتطويرها هناك. فالمعلمون هناك أقل قلقاً، لذا يسعني تطويرها وجعلها أكثر دقة من حيث المنهجية. وأعتبر "المادة الخام" التي نصنعها هنا من أكثرها فائدة وتشويقاً، ومنها العمل الذي أنجزناه مع مركز القطان، وهو الذي لا أزال سعيداً جداً به حتّى اللحظة. ولدى المعلمين هنا أيضاً تعطش كبير للمعرفة يجعلك تشعر أنهم يرغبون في تعلّم الأساليب والمناهج السليمة بأي ثمن. ولا يعني هذا أنهم جاهلون، بل إنهم ما إن تعلّموها مارسوها، وهذا أمر رائع في حد ذاته.

ماذا ستحمل معك على المستوى الشخصي عند رحيلك؟

أنا متأثر على المستوى الشخصي بجذوري المتوسطيّة، فأبي كان من بلاد حوض المتوسط. ومع أنه كان مسيحياً أرثوذكسياً، فقد كان نمط حياته مماثلاً تماماً لنمط عيش الكثير من الناس هنا، إذ كان فلاحاً يعيش بعيداً في الجبال، ويقطف الزيتون حتّى عمر الرابعة عشرة. انتقل بعدها إلى العمل في الأديرة، ولم يحصل على تعليم إلا الذي تلقّاه من صديقه الأسقف مكاريوس الذي علّمه القراءة. ولهذا، لدي اهتمام تلقائي شخصي بالشرق الأوسط وبلاد الشام –كما تُسمّى– لأنها منطقة ذات تاريخ وتراث عميقين. فمهد التاريخ والحضارة هنا، إضافة إلى مصر في الجنوب، وسوريا في الشمال. فالإنسان وُلِد وتكاثر هنا، وها هو لعله يتعلّم بعض الدروس القليلة التي ما زال عليه تلقيها. ولهذا، أشعر بانجذاب شديد لهذه البقعة وتعلّق كبير بها، فأنا لا آتي فقط للعمل هنا، بل أحس بتعلّق شديد بالذين أعمل معهم في "القطان"، وأولئك الذين ألتقي بهم في المدارس.

الهوامش:

* مدير الاتصال والعلاقات العامة في مؤسسة عبد المحسن القطان.

لوك أبووت خلال عمله مع الأطفال في الخان الأحمر.